كلية الآداب– قسم اللغة العربية

المرحلة الأولى – الشعر الجاهلي

المحاضرة ألأولى

نشأة الشعر وأوليته:

لقد حظيت أولية الشعر باهتمام خاص في النقد العربي منذ القدم، وما زالت تحتل موقعها الذي تبوأته منذ القرن الثاني الهجري، لما اعتراها من غموض ولبس أوقع الكثير من الدارسين، والمشتغلين بتاريخ الأدب العربي في حيرة.ولعل أول الذين أولوا اهتمامهم بمحاولة تحديد البدايات الشعرية الأولى "الجاحظ" الذي نسب أولية النظم الشعري إلى امرئ القيس، وحدد فترة الظهور إلى حوالي ١٥٠ –٢٠٠عام قبل الإسلام. إن التاريخ الحقيقي للبدايات الشعرية يبقى غائماً، غير أن هذه المقاربات الافتراضية يعود لها الفضل في محاولة تحديد ـ على الأقل ـ العصر الاجتماعي الذي قيلت فيه تلك المحاولات.

من النقاد الذين لامسوا هذه القضية كذلك ابن سلام الجمحي " ٢٣١هـ" في معرض حديثه عن الطبقة الأولى من الشعراء، حيث أشار إلى البدايات الأولى للشعر العربي في صورة مقطعات صغيرة، وأبيات معزولة بقوله: (ولم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل في حاجته، وإنما قُصّدت القصائد وطُوّل الشعر على عهد عبد المطلب، وهاشم بن عبد مناف، وذلك يدل على إسقاط شعر عاد وثمود وحمير وتُبّع..).

في ضوء هذا النص يتضح أن الفترة الزمنية للبدايات الشعرية وتقصيد القصائد تتراوح بين نهاية القرن الخامس الميلادي، وبداية القرن السادس الميلادي بحكم أن عبد المطلب بن هشام جدّ الرسول(صلى الله عليه وسلم) كقرينة في نص ابن سلام، لم يكن يتجاوز الثمانين عاماً على أكثر تقدير، وذلك عندما توفي ابنه "عبد الله" في رحلة تجارية إلى الشام، وهو العام الذي ولد فيه حفيده خير الأنام تقديراً سنة ٥٧١م، مما يدل على أن الفترة التي قصدها ابن سلام في تقصيد القصائد

وتطويل الشعر، هي تقريباً ما بين نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس الميلاديين.

وبخاصة أن بداية حرب البسوس كانت قرب نهاية القرن الخامس الميلادي وانتهت بمبادرة إصلاحية من قبل المنذر الثالث ملك الحيرة والد عمرو بن هند حين أصلح بين أبناء العمومة بكر، وتغلب حوالي عام ٥٢٥م، وبما أن هذه الحرب قد دامت أربعين عاماً، فإن الفترة التي استغرقتها تقديراً هي ما بين سنة ٤٨٥م وسنة ٥٢٥م. وإذا كان سبب نشوب هذه الحرب هو مقتل (كليب) أخي عدي بن ربيعة الملقب بالمهلهل، الذي رثاه بمقطوعة يعدّها ابن سلام ومَنْ جاء بعده بداية تقصيد القصائد، فإن هذه القرائن تشير إلى أن نشأة الشعر حصلت في الفترة الممتدة بين نهاية القرن الخامس الميلادي وبداية القرن السادس الميلادي.

في ضوء ما سبق يمكن أن نستأنس بفرضيتين:

ـ الفرضية الأولى هي أن الجيل الذي سبق امرئ القيس أشعر من جيل امرئ القيس، بدليل ما أقره الشعراء الثلاثة: زهير، وامرئ القيس، وعنترة الذين ذكروا أبياتاً يشيرون فيها إلى أنهم قد سُبقوا بغيرهم في نظم الشعر.

ـ أما الفرضية الثانية فتجعلنا نؤثر عام ٤٨٥م، وهو العام الذي نشبت فيه حرب البسوس إثر مقتل كليب على يد جساس بن مُرّة كبداية تقصيد القصيد على يد المهلهل الذي رثاه في قصيدة أشار إليها ابن سلام.

أما ابن قتيبة " ٢٧٦ هـ" الذي نحا منحى آخر، حيث تجنب تحديد الفترة الزمنية لنشأة الشعر العربي، واكتفى بذكر بعض الشعراء الأوائل دون أن يشير إلى تاريخ، أو حادثة تؤرخ أو تحيل إلى فترة زمنية بعينها قصد محاولة إبداء رأيه في نشأة الشعر العربي، فقد ذكر في الفصل الذي عقده للشعراء الأوائل أنه (لم يكن لأوائل الشعراء إلا الأبيات القليلة يقولها الرجل عند حدوث الحاجة). إن ابن قتيبة قد تجنب الحديث عن تقصيد القصائد، كما أنه لم يشر إلى صفة الشعرية التي عادة ما تنعت الشاعر، إنما قال: أبيات يقولها الرجل لحاجة ما، وهي الإشارة التي تمكننا من تجاوز الخوض في البداية الحقيقية لتقصيد الشعر والاكتفاء بالوقوف عند بعض

الشواهد التي تحيل لذاتها لكونها نتفات، أو مقطعات شعرية وليست قصائد كاملة النضج.

فقد ذكر ابن قتيبة بعض أولئك الذين قالوا أبياتاً أو بعضاً من أبيات كـ"دويد بن نهد القضاعي والحارث بن كعب، وأعصر بن سعد"، إضافة إلى ابن سلام الذي أضاف أسماء شعراء آخرين منهم: العنبر بن تميم، والمستوغر بن ربيعة، وزهير بن جناب الكلبي، وجذيمة الأبرش، علماً أن هناك شعراء آخرين ذكروا في مختلف المصادر القديمة، ولأنهم كثر ارتأيت الاقتصار على أربعة شعراء من الأسماء المذكورة للتمثيل فحسب.

إن الأوزان التي استعملها هؤلاء الشعراء هي بحور خفيفة تلائم طبيعة الحياة التي كانوا يعيشونها، كذا مرحلة السن المتقدمة التي قطعوها في حياتهم، كما أن الأغراض المتبلورة من هذه الأشعار تتمحور حول الحكمة والفخر، وكذا الإشارة إلى الشيخوخة والوهن، فهي أشعار تحكمها النزعة العقلية الرصينة، مما يحيل إلى أن أغلب الشعراء المذكورين كانوا سادات في أقوامهم ونظموا هذه الأشعار في سن متقدمة، مما يدل على أن هناك أشعاراً أخرى نظموها في شبابهم قد طواها النسيان ولم يدركها رواة الشعر القديم وجامعوه . ولهذا الضياع جملة عوامل أسهمت في توسيع الظاهرة حتى مسّت جزءاً كبيراً من التراث الأدبي وهي:

أولاً: انتفاء أول مبدأ من مبادئ حفظ ما نظم من أشعار في تلك المرحلة ـ أي مرحلة فجر الشعر ـ وهو القراءة والكتابة، إذ الذاكرة وحدها لا تستطيع أن تحتفظ بالمحفوظ مدة طويلة وبخاصة إذا كان المحفوظ لا يمثل اهتمامات أو انشغالات القبيلة أو الجماعة.

ثانياً: عدم تداول المقطعات الشعرية، والتي كانت أبياتاً قليلة يقولها الشاعر في مناسبة معينة لها علاقة بذاتيته، واقتصاره على همومه الذاتية وفي أحسن الأحوال لا تتعدى انشغالاته أسرته الصغيرة دون تجاوزها إلى مستوى القبيلة.

رواية الشعر:

لم يكن اهتمام العرب بجمع الشعر اهتماما أملته ظروف محددة، أو خلفته أجواء أدبية ملحة، فالشعر ديوان العرب فيه أخبارهم وبين ثناياه أيامهم وفي كل خفقة من

خفقات أبياته حسٌ مرهف من أحاسيسهم الصافية، وقد تمثل هذا الاهتمام في سلسلة الرواة الطويلة التي حفظت لنا هذا الشعر، فكانت سلسلة أوس بن حجر وزهير بن أبي سلمى وكعب بن زهير والحطيئة وهدبة بن الخشرم وجميل بن معمر وكثير عزة، وكانت سلسلة طرفة بن العبد الذي كان يروي شعر المرقش الأصغر ويأخذ عنه، وكان المرقش الأصغر يروي عن عمه المرقش الأكبر، وكان طرفة يروي لخاله المتلمس، ومثل هاتين السلسلتين كانت سلاسل رواة شعر هذيل والصعاليك وغيرهم.

ومن الطبيعي أن تأخذ الرواية طريقها في البيئة الجاهلية، لأنها كانت الوسيلة السليمة في الحفاظ على الشعر لتؤديه إلى الأجيال حلقة متصلة لا يطمسها ضياع ولا يحرمها اختلاط كتابة أو يضيعها تصحيف أو تحريف، وظل الرواة يتناقلونه تناقلا سليما ويحرصون على أدائه أداء صحيحا في العصر الإسلامي لأنهم وجدوا فيه سلاحا يدفع عن الدعوة خصومها فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يستحث حسان بن ثابت ويشد أزر كعب بن مالك وعبدالله بن رواحة لهجاء قريش والرد على كل دعوة باطلة، وكان اهتمام الصحابة والخلفاء الراشدين اهتماما لايقل عن اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم.

وينبغي لمن يريد دراسة الرواية الجاهلية أن يتعرف على مجموعة من المصطلحات، وهي: الشعر المنحول، والشعر المنتحل، والشعر الموضوع أو المصنوع.

فقد عرف العرب منذ الجاهلية قضية النحل والانتحال والمصنوع، فالشعر المنحول: هو أن تعزو قصيدة أو قطعة أو بيتا إلى شاعر وهو لغيره، يقع ذلك منك سهوا أو عمدا، أما الشعر المنتحل: هو أن تدعي لنفسك ما ليس لك كأن تنسب لنفسك قصيدة أو شعرا وهو من قول غيرك. وأما الشعر المصنوع أو الموضوع: فهو كل شعر جرى نظمه في الإسلام وعزي إلى العصر الذي قبله فهو شعر يعكس أجواء ذلك العصر وقيمته ولغته وبيئته إلا أنه لم يقله جاهلي بل وضعه شاعر إسلامي مقتدر على تزييف الشعر.

وقد أولع الناس بهذا المصنوع واستعذبوه حتى أنه كانوا يجدون في تركه غضاضة وغبنا كما لو كانوا مقبلين على الصحيح، وكان العلماء حذرين في كل ما ينقل إليهم من شعر كما كانوا يملكون القدرة على تمييز شعر الجاهلية من شعر الإسلام وكذلك

لم يكونوا يقبلون أية رواية إلا أن يكون صاحبها موثوقا به ومعروفا بصدقه ومما يدلل على ذلك أنهم كانوا يؤكدون مايروونه بعبارات من مثل: وجاء في الشعر الذي لا يرد، وقولهم في شعر حسان بن ثابت: ثبت قديمة، وقولهم عن بعض الأخبار: أنها مدعمة بالشاهد الصادق وبالأشعار الصحيحة.

ويبدو أن كلمة رواية وفق مدلولها اللغوي: تعني الحيوان الذي يحمل الماء من منابعه كالعيون والآبار إلى الناس الذين يسكنون القرى والبوادي والأرياف والمدن، ولم تقتصر عملية النقل على الحيوان فأصبح الشخص الذي يحمل الماء يعرف بالراوية، وكذلك المزادة المصنوعة من الجلد أو القماش تعرف بالراوية.

ولم يبعد الناس كثيرا ولا قليلا عندما استعاروا لرواية الأشعار اسمه من رواية المياه وذلك للعلاقة الوظيفية بينهما، فقد كان روايا الماء أقرب الناس إلى سماع الشعر وروايته حيث تلتقي القبائل عند موارد المياه تنتظر كل قبيلة دورها في ورود المياه فتعرض كل منها آخر ما لديها من الشعر والأدب أمام الروايا من الرجال فينقلها هؤلاء إلى قبائلهم، قال المسيب بن علس:

فلأهدينَّ مع الرياح قصيدةً مني مغلغلةً إلى القعقاع

تَرِدُ المياهُ فما تزالُ غريبةً في القوم بين تمثُّلٍ وسماع